شارلس لامب يروى عن شاكسبير

٢ ـ قصة الشـــتاء

بقلم الأستاذ دريني خشبة

وهرول بها إلى كوخه وألقى زوجته هاشًّا ، ثم دفع بالطفلة الميمونة إلى صدرها اللطيف قائلاً : « أرضعيها ياموبسا ... أرضعى ابنة الملوك الصيد » ونظرت الراعية إلى باردينا تارة ، وإلى طفلها أخرى ، وكأنما جزعت أن تشركه هذه الغريبة النازحة فى لبنه ، فقال الراعى وهو يوشك أن يجن : « أرضعيها يا موبسا فقد حملت إلينا كنزاً وجعلتنا سادة الرعاة ! » . فانبلجت إشراقة سعيدة فى أسارير المرأة ، وأبرزت ثديها الكبير الممتلئ باللبن فدست حلمته فى فم الطفلة ...

وخشى الراعى أن يبدو عليه الثراء الفاجئ إذا هو تصرّف فى شىء من جواهر الطفلة بالبيع أو بغيره ، فرحل عن الإقليم كله ، ونزح إلى طرف سحيق ناء فى أقصى حدود بوهيميا . وهناك تلبث غير قليل ثم باع جزءاً من الكنز الملكى الكريم ، وابتاع بما حصل فى يديه من ألوف قطعاناً كثيرة . وما هى إلا سنون حتى درّت له أخلاف الثروة ، ونضر الله الأرض تحت رجليه بالرزق ، فعاش عيشة راضية مُخفْرجة ، وعَلَّم باردينا ونشأها بين الضأن البُهْم ، فشبت فى هواء الطبيعة الحر الطليق وفى ميدانها الستدسى الواسع ، لا صديق لها إلا كلبها الأمين الوفى ، ولاحديث إلا الأحلام الخافتة تتردد فى فم القمر الصامت ، ولا أطماع إلا أن تكبر البهم وتدر ألبانها

وشبت جميلة ناصعة كتمثال المرمر قد صقلته يد فنانة صناع ... رزينة كأنما أوحى إلى قلبها الصغير الخلى أنه مسرح لمأساة صامتة ومعبد لآلهة وسنانة تجثم فيه لحينها !

وكان لملك بوهيميا ابن مولع بالصيد ، يرتاد من أجله المسايل والوديان ومشارف الجبال . فبينا هو يصيد يوماً فى ذلك الصقع إذا عيناه تقعان فجأة على باردينا ، وإذا هو يقف مسبوهاً زائغ البصر يعبد الفتاة البارعة الفينانة ، ويردّد عينيه في عالم جسمها الزاخر بأمواه الجمال ...

لله لحمها الوردى . وجبينها السَّنىّ ، وفمها الخمرىّ القرمزى وشعرها المُسْقَدَوْدِن الذهبي ، وطرفها الساجى ! ولله هذا الخجل

كالطفل يُبْصرُ فى الوذيلة وجهه ... فيخال ذاك الوجه من قرنائه ... هذى الطيور لسانه وغناؤها ... مستأنف من شدوه وغنائه

تحكى النجومُ الزُّهْرُ فى دوراتها ... رقصَ المدلِّ بعيشه وروائه ... والزهر فى حر الهواجر نائم ... سحرته باللحظات عين ذُكائه

والنجم من خَلَلِ الغصون كأنه ... ثمرٌ تدَلَّى من علىٍّ سمائه ... والأرض تحلم بالجِنَانِ فصيفها ... حُلُمٌ يزيح القلب عن ضرّائه

والحي يحيا كالذى هو ناظر ... كالأُفْقِ يُرْسَمُ فى متون نهائه ... بَسَطَ الجمالُ على الفضاء جناحه ... فالصيف من لألائه وروائه

والزهر يحلم بالفرادس طرفه ... حلم الغريب بأهله وفنائه ... فكأنه مَلَكٌ يُحلِّقُ فوقها ... فتصيب من آلائه وعطائه

حسب الطيور تحاملت عن قلبه ... وبدت تبوح بشجوه ورجائه ... يا ليت أن المرء فى أرجائها ... مُتَفَرِّقٌ فى أرضه وسمائه

والقلب مرآة الزمان فصيفه ... فى صيفه وشتاؤه كشتائه ... حتى يصير من الجمال بمنزل ... فى مائه ونسيمه وهوائه

والكون مرآة الفؤاد فقبحه ... وجماله فى نحسه ورخائه ... وتظل تسمو النفس فى آفاقه ... كالطير حلّقَ فى أديم فضائه

والضوء خمر للربيع فلا تَعَفْ ... جُرَعاً تُنيلُ الخلد من صهبائه

عبد الرحمن شكرى

الناعم القطيفي الذي سلبته لها الطبيعة من خوخ بوهيميا ! لقد ملأت پارديتا قلب فلوريزيل وعينيه ، وسرت كالحميا في دمه ؛ فنقلته من دنيا إلى دنيا ، ومن مُلْك إلى مُلك ، وركبت له قلباً غير قلبه ، وإحساساً مرهفاً غير إحساسه ؛ وسرت في خياله طيفاً معبوداً جعل الحياة جميلة مثلها ، حبيبة لأنها فيها ..

وهكذا عمر قلب الفتى بحب الفتاة ، فبات لا يفكر إلا فيها ، ولا يتوجه بأحلامه إلا إليها ... وأخذ يكثر الصيد في هذه الجهة ويتردد على هيكل غرامه المقدس ليشق عبيره ، وينعم بأرج الحب في أكنافه ... ثم لم يطق أن يظل هذا حاله ، فتنكر في ثياب شعبية ، وصار يتردد على كوخ الراعي فيحدثه ويسمر إليه ، وآنس فيه لطفاً وظرفاً وتأدباً ، فمال إليه ، واطمأن فؤاده لصحبته ... وكان فلوريزيل فتى مشرق الشباب حلو الفم ، يتحدث فتنجذب إليه الأسماع ، ويصمت فتسرح في وجهه العيون

ولقي الفتاة فنمت عيناه المدنفتان بكل ما في قلبه ، وجميع ما يتأجج بين أضلاعه ففتحت له قلبها الخلي ... وهرول هو من عينيها الصافيتين الساحرتين ، ومن فمها القرمزي المُتَبَسِّم ، إلى أبعد أغواره ...

وذكر لها أن اسمه دوريكلز ... !

* * *

وطال غيابه من حضرة أبيه الملك ، وتعذد ، وأصبح لا يهمه أن يغشى المجالس الملكية ، فجمجمت نفس أبيه بأشياء فراح يدبر أن يعرف منها ما حرص ابنه أن يخفيه عليه

وأرسل عيونه في عقبيه ، فعرفوا ما بينه وبين پرديتا

ودعا الملك إليه صديقه كاميللو ، كاميللو المخلص الذي أنقذه من السم في بيت ليونتس ملك صقلية ، فكشف له عما في نفسه وذهبا متنكرين في إثر فلوريزيل إلى كوخ الراعي ... والد پرديتا فيما زعم له الزاعمون

وكان عيد الصوف الذي يجزون فيه الأغنام ، وكان الكوخ وما حوله في حركة صاخبة ومرح ، وكان المدعوون جالسين إلى الموائد الحافلة بالآكال والأشربات والأشواب المعممة بالحبب ، وكان الولدان والعذارى والغانيات يرقصون على نغم النساى فوق العشب الأخضر ؛ وكان بائع متجول يجلس في ناحية وقد التف حوله فتيان وفتيات يشترون ويشترين ، هذا رباطاً وهذه قفازاً ... وكان فلوريزيل قد انتحى وپرديتا ناحية ، وراحا يتناجيان ويتبادلان ، غير معنيين بهذا الحفل الراقص ، المائد بالأذرع والسيقان ، المائس بالقدود والنهود

ودلف الملك نحو الجهة التي اعتزل ابنه الناس فيها ، ودلف وراءه كاميللو ، ثم جلسا عن كثب ، بحيث يسمعان نجواهما

— عجباً يا كاميللو ! إن هذا الجمال وهذا السمت كثيران على ابنة راعٍ نشأت بين البهم ، وشبت في جنبات المروج !

— ولم يا مولاي ؟ أليس الرجل أغنى رعاة بوهيميا ؟ إنه ملك القطعان ، وابنته من أجل ذلك ملكة اللبن والقشدة !

— إن فلوريزيل يجلس بين يديها كالخجل !

— وليس هذا عجيباً أيضاً ، لأنها خبيرة بتأديب الدئاب !

وتبسم الملك ثم ترك صاحبه وقصد إلى الراعي فسلم عليه ثم قال :

— عمرك الله أيها الأخ ! من هذا المدنف المتبول الذي يناجي فتاتك الهيفاء ؟

فقال الراعي : « ذاك الفتى ! إنهم يدعونه دوريكلز ، وكل منهما يهيم بصاحبه كما ترى ... ولست أدري أيهما أسعد بإلفه من الآخر ؛ بيد أنني لا أشك في أنه إذا اختارها لتشركه في حياته فإنه يفوز بشيء عظيم جداً ، لأن وراءها كنزاً لا يحلم مثله بمثله ! ! »

وهم الملك شطر الحبيبين فقال يخاطب ابنه وهو يمضغ كلماته ويعطها ، حتى لا ينكشف أمره : « أنت أيها العاشق الصغير ، فيم اعتزالك هذا العيد بما فيه من لهو ومرح وقصف وعزف ! ويحك ! لقد جاء عليّ حين من الدهر أحببت فيه كما تحب أنت اليوم ... وكنت أسجل حبي بالهدايا والتذكارات ، فما لك لا تشترى لحبيبتك من البائع المتجول كما يشتري الولدان لعذاراهم ؟ »

وقال فلوريزيل ، وهو لا يدري أنه يخاطب أباه ومولاه :

« تالله يا أبتاه الشيخ لو اطلعت على ما في جوانحنا لاستقللت الدنيا بأسرها هدية لحبيبتي پرديتا . وإن هديتي لها هي هنا ... في هذا المكان الأمين ... في قلبي »

ثم التفت إلى الفتاة وقال : « أوه يا پرديتا ! إصغي إلي يا حبيبتي ! لقد سأل هذا الرجل الشيخ أن أقدم لك هدية كما كان يفعل إذ هو فتى ذو صبابة ودر هوى ! فهأنذا أقدم لك فؤادي بين يديه وأجعله شاهدي ؛ وهأنذا أعلن أمام الملأ أنني أكون أسعد الناس لو رضيني أبوك زوجاً لك ، ويسعدني أن يبارك هذا الشيخ عقد حبنا وصحيفة ارتباطنا ! ... »

ولم يطق الملك على تصرف ابنه صبراً . فانتزع دِمَامه[1] ، وكشف عن حقيقته ، ثم صرخ بابنه قائلاً : « بل أشهد على صحيفة طلاقكما أيها الشقى ! ما شاء الله يا ولى العهد ! لم يبق إلا أن تنسى دمك الملكى فتلطخه بدم هذه الراعية ! تلك الفجرية التى استهوت فؤادك وسَبَت لُبك ! الويل لك يا فلوريزيل ! إنى أنذركما معاً ! حذار أن يرى أحدكما الآخر ، وإلا كان الموت جزاءكما تجرعانه يا شقيين ! أتسمع أيها الراعى ! ذُدِ ابنتك عن سيدك أو ادفع رقبتك ثمناً لعصيانك

ثم أمر كاميللو أن يتبعه مصطحباً فلوريزيل ، وامتطى هو جواده ، وذهب يعدو به ، وكأنه شيطان على فوهة بركان !!

وغلى الدم الملكى في عروق پرديتا ، فوقفت تردد عينيها فى أثر الملك وتقول : « ويحك ! أيهذا الملك ! على هينتك ، فوالله ما أزعجتنى غضْبتُك ، ووالله لقد هممت أن أقول لك كما قلت لى ، وإن الشمس التى تشع بأضوائها على قصرك هى هى التى تشع بلألائها على كوخنا هذا الهادىء الصغير ! ولكن ! وا أسفاه ! لقد أيقظتنى لهجتك الجافة ذات الصرير من أحلامى السعيدة التى رفعتنى حيناً إلى مصاف الملوك ! فيا أحلامى ... وداعاً ... ووداعاً أيها الأمير ! وداعاً يا مولاى . ! أتركنى أرجوك !

أتركنى لخرافى ونعاجى الحبيبة أرعاها وأحتلبها ..! وأبكى معها فوق المروج الخضر والعشب الحلو !

وانهمرت عبراتها فجأة ، فوجم ولى العهد المعذب ، ووقف كاميللو ساهماً متأثراً ... ثم خطر له أن ينقذ الحبيبين ، وأن يصل حبلهما المقدس ، لأن قضيتهما من قضايا القلوب التى لا سلطان لأحد عليها ، والتى لا تقوى على فصمها حتى يد الموت التى هَدَّد بها الملك المغيظ المغْضَب

وكان كاميللو قد علم بما كان من حزن ملك صقلية وتوبته وحسن إعذاره وجميل إنابته ، بعد موت هرميون ، وكان الشوق إلى الوطن والحنين إلى الأهل قد برّحا به ، ففكر لِتَوِّه أن يفر بالحبيبين من وجه ملك بوهيميا ، إلى رحاب ملك صقلية ، حيث تقى شفاعة ليونتس ، من غضب پوليكسينز ، وحيث تتيح[2] الفرصة للود القديم فيحيا ويتجدد ، وتهيأ القلوب للمصافاة فتنسى

وعرض عليهما مابدا له من الفرار فانشرحا له ووافقا عليه ؛ ثم كلم الراعى فى شأنه ونعمه وقطعانه فتركها فى عهدة صديق له وجمع ما خف حمله من ماله وما احتفظ به من جواهر پرديتا وثيابها التى وجدها فيها والورقة التى كتب عليها اسمها وشىء من نسبها وحديث مأساتها ... ثم لاذ الجميع بالفرار

وكانت مجازفة مليئة بالشجن ، فى طريق محفوفة بالمخاطر

واستأذن كاميللو على صديقه ملك صقلية ، فتلقاه بعينين باكيتين محزونتين ، وضمه إلى صدره كأنما كان يعانق أشباح الذكريات الحبيبة ، ويضم طيف الماضى العزيز ...

— مرحباً كاميللو ... مرحباً بحبيبى المخلص ، ومشيرى الأمين .

— مولاى ! ...

ثم انحبس منطق الرجل فلم يزد على هذا ، وترك لدموعه أن تتكلم ! !

ولما هدأ ، وسكنت نفساهما ، قدَّم إليه كاميللو ولى عهد بوهيميا ، ابن صديقه الأعز ، وحبيبه الأوفى ، پوليكسينز ! فتبسم له الملك ، وتلقاه بالأهل وبالسهل ، ثم طبع على جبينه قبلة التكفير عما ظن بأبيه من سوء . وقدم فلوريزيل فتاته پرديتا قائلاً : « خطيبتى الأميرة پرديتا يا مولاى ! » وهش لها الملك وبش ، ولكن سرعان ما تبددت ابتساماته فى جو من الذكرى دَهَم فؤاده فجأة !

لقد نظر الملك إلى الفتاة الجميلة الرائعة فكأنما وقف فى ظهيرة غائمة قاتمة فوق قُلّة جبل ، ينظر إلى أشعة الشمس تنمر سهلاً نائياً كله ورود ورياحين وأزهار !

لقد ذكر ماضياً سعيداً حافلاً بالهناءة عند ما رأى پرديتا !

لقد رأى فى عينيها أحلامه المواضى الرائعات !

لقد أحس بقلبه يثب من صدره إلى حدقته ليرى إلى الأميرة القادمة ؟ !

وَىْ ! تُرى ! هل من الجنة آبت هرميون !

أليس هذا هو طيفها الحبيب يتمثل له فى هذه العذراء الفتان ؟

ولحظ الراعى ما بدء الملك من پرديتا فوجب قلبه ، وطفت ذكرياته القديمة فوق بحر لجى من عباب نفسه ، لكنه صمت مع ذلك ولم ينبس

« يتبع »

دريني خشبه

(١) الدمام ما طلى به الوجه وغيره ونحن هنا نترجم بها كلمة المكياج التى تزيد على الدمام بالشارب المصطنع واللحية وشعر الحواجب والرأس . وحبذا لو وافقنا علماء اللغة فخصصوا الدمام (للمكياج) والتطرية (للتواليت)

(٢) تاح يتوح ويتيح تهيأ